تمثل فلسفة الدعاء معراج المؤمن إلى الله ، والبالغ به إلى أرقى مراتب الكمال، إذ ليس شيء في هذه الحياة ما هو أسمى من الاتصال بالله تعالى خالق الكون ، وواهب الحياة إلى النفوس الحائرة التي تشعر بالطمأنينة بعد القلق ، وبالأمل بعد القنوط حين الركون إليه ، أن الدعاء الخالص ليسمو بالإنسان إلى عالم الملكوت. ليس الدعاء حالة من مزج الألفاظ وإطلاق المعاني المشوهة ، وإنما هو حالة فطرية تتناسب مع طلب النفس وعطشها ، حيث تظهر بآنية تتناسب مع نسبة الحاجة من العبد ، ونسبة الفيض المعطى من الرب ، ولهذا تحتاج إلى آداب لفظيه ، وآداب معنوية ، حتى لا يتجاوز الداعي حدود الحضرة الإلهية بعبثية نفسه ، وطلبات أهوائه الشهوانية .

وللدعاء نصيب من الإيضاح والبيان عند أهل البيت (عليهم السلام) ليس على سبيل التأليف والكتابة ، فحسب وإنما على سبيل التطبيق والممارسة ، وقد ظهرت آثاره عليهم من وقوفهم بين يدي الباري تعالى . ومما علموه مواليهم وتلامذتهم من أفعال وأقوال ، تسوق المتعبد إلى المعرفة والقرب والحب . وامتازت من بين مجموع ما رُوي عنهم ما روي عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) من الأدعية ، خصوصاً تلك التي ضمّنها (الصحيفة السجادية) التي تتلألأ من بين أدعيته ، لأنّها من تأليف الإمام نفسه ، وإملائه.

فعندما يكون الحديث عن الصحيفة السجادية ، وكلام زين العابدين (عليه السلام) الذي هو من أهل البيت (عليهم السلام) يتطابق لدينا الكتابان ، ويتساوى الثقلان ، كفة القرآن ، وكفة الإمام . فالمتتبع لاقتباسات الصحيفة السجادية يلاحظ نوعين من الاقتباس الأول مباشر والآخر غير مباشر لنصوص القرآن الكريم ، وهذه النصوص ذات قيمة دلالية عالية استعاض بها الإمام (عليه السلام) عن كلامه لما تختزنه من اثر كبير في نفوس الناس ، وما تحمله من قداسة وبداهة تدفع جميع الأوهام التي قد تحاك من نسج خيال السامع اثر الاختلاف بالمعتقد أو لاعتبارات سياسية أو اجتماعية .

ومن خلال المزاوجة بين كلام الإمام (عليه السلام) والنص القرآني ، ينتج نص جديد يحمل فكرة جديدة مثبتة للنص الجديد ، فضلا على زرع اليقين في ذهن السامع بتراتيل قرآنية تعبر عن صحة مسيرة المتكلم ، وتُسكّن من اضطراب روع السامع .

فنجد الإمام زين العابدين (عليه السلام) في تعامله الذوقي ، في الربط بين كلام الخالق والمخلوق ، احدث بسلاسةِ اقتباساته اللفظية والمعنوية وانبساطِها التي غمرها في أثناء خطابه الذوقي ، مسامرة لفظية ومعنوية ، فالسامع لخطابه يكاد يميز الشراكة بين كلام الإمام

(عليه السلام) والآيات القرآنية ، لبراعة ربطه للنصوص ، وتكثيفه للمعنى الإيحائي الذي يتولد من مشابكة النصين ، فالإمام (عليه السلام) من خلال طريقة اقتباساته يُحدث في نصه حالة تُسكن من قلقلة كلماته ، وتحرك من سكون عباراته ، مُحدثةً فورة تفاعلية تكسو بمادتها كلماته ، وبمحتواها معاني عباراته .

ويضاف إلى تلك المقطوعات السجادية المفعمة بروح التوحيد والناطقة بالإخلاص لله تعالى ، مقاطع صريحة مستقاة من تعاليم القرآن ، وممزوجة بروعة البيان ، تنم عن عمق إيمان الإمام (عليه السلام) بالله، ونقاوة التوحيد لديه وخلوصه ، حيث عبر عنها بنفسٍ توحيدي خالص ملاصق لما رتلهُ الوحي من آيات القرآن الحكيم .

فمن خلال مسيرة البحث يمكن أن نجمل ما توصل إليه الباحث من نتائج في النقاط الآتية :

1 – العرض الجاد للمسائل الاعتقادية ببرهان الكشف الصادق الفطري الخالي من أوهام الفلسفة والفكر ، محاكاة للقران في إثبات أصول العقائد في المبدأ والمعاد .

2 – التأثر والانهماك بالخلق الإلهي ، من خلال استيعابه للأسماء والصفات والأفعال التي ذكرها الحق في كتابه .

3 – مراعاته للأدب الإلهي ، من خلال اقتفاء الأدب القرآني ، والتأسي برسول الله(صلى الله عليه وآله) كقدوة ، والأنبياء (عليهم السلام) أسوة حسنه .

4 – الذوبان الروحي الذي عجن به ادعيته ، مستمداً من روحانية القرآن الكريم ، وأساليبه العالية القدرة على استنهاض جذوة الروح من كومة رماد الغفلة والنسيان .

5 – السمات الأخلاقية التي سطرها في دعائه ، وهي تحكي عن استبيان المكنون من أخلاق القرآن الكريم وإظهاره.

6 – البيان الواضح الذي حاكى به تركيبة كلام الله ، والأسلوب الرائع الذي مازج من خلاله كلام الحق بكلام الخلق في حله قثيبة زاهية مرصعة بومضات أسماء الحق تعالى .

7 – صفة العمومية التي اتصفت بها أدعية الإمام (عليه السلام) ، وقد استوعبت شرائح متعددة تمثلت بالأنبياء والرسل (عليهم السلام) ، وأصحابهم وتابعيهم من المؤمنين ، فضلاً على تطرقه إلى أهل البيت (عليهم السلام) .

8 – إن الغالب على اقتباسات الصحيفة السجادية ،الاقتباس الاشاري ، فقلما نجد نصاً للإمام (عليه السلام) غير مقتبس من آيات القرآن . أما الاقتباس النصي فقد انحسر في تسع وثلاثين آية قرآنية فقط . أما سبب العدول عن النوع الثالث من الاقتباس – التحويري – فهو لا يعدو كونه اقتباساً لفظياً أو أشارياً ، فضلاً عن عدم ثبوتهُ عند القدماء من البلاغيين ، بل هو دليل على حرص الإمام (عليه السلام) الشديد على البقاء قريباً من القرآن الكريم ، مقدساً لهذا النص العظيم وكأنه عليه السلام لم يكن يجرؤ على محاورة النص القرآني أو مناقضته.

9- ومن خلال استقراء نصوص الإمام (عليه السلام) ، ومعرفة التراكم الاقتباسي لها ، من خلال استعانتهِ بالمفردات والعبارات والصور القرآنية ، تكشف عمق جذور ثقافة الإمام (عليه السلام) الدينية ، وسعة اطلاعه وتأثره بالقرآن ، حتى أصبح لفظه صورة تعبيرية وثقافة قرآنية ناطقة بلسان آيات الحق تعالى .

10- نجد أن الإمام زين العابدين (عليه السلام) ، من الرعيل الأول في هذا الفن ، والمطلع على ادعيته وخطبه يجدهُ ضليعاً في تشريب النصوص القرآنية في أثناء كلامه ، بعضها قد أركزه بنصه في سياق متجانس مع خطابه ، وبعضها الأخر وهو الأكثر ، قد حلهُ بماء بيانه ، وصبه بقواعد إيمانه ، فنتج عنه هذه الصحيفة السجادية ، والمرايا القرآنية .